مجلة العلوم الإنسانية
المجلد الأول (2016م)
عمادة البحث العلمي
DEANSHIP OF SCIENTIFIC RESEARCH

عِلم الكِتَابَةِ العَرَبِيَّة

فيصل البشرى سليمان المكي و فضل الله النور علي و حربية محمد أحمد
جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا – كلية التربية – تخصص: تربية – لغة عربية

المستخلص:

هدفت هذه الدِّراسة إلى توضيح ما أُثير من شُبُهات حول اللُّغة العربيَّة وما نُسب إليها من صفات التَّقصير والجُمود وصُعوبة التَّعلُّم وصُعوبة الكتابة والعجز عن الاستيعاب.

وهذه الورقة العلميَّة تردُّ على تلك الشُّبهات التي أثارها أعداء اللُّغة العربيَّة والمآخذ المنسوبة إلى الكتابة العربيَّة.

كما تناولت هذه الورقة أهميَّة الكتابة العربيَّة وأنواع نظمها ومزاياها. واختتمت بأهمِّ ما توصَّلت إليه من نتائج وتوصيات.

الكلمات المفتاحية: النِّظام (الألفبائّي، المقطعيّ، الفكريّ) الفونيم – الألفون.

ABSTRACT:

This study aimed at explain suspicions which raised about the Arabic language and attributed to the this language of description such as shortening, motionlessness, difficulty of learning, difficulty of writing and inability to assimilation.This academic paper refutes those suspicions and weaknesses attributed to the Arabic writing that have been raised by the Arabic language enemies.This academic paper also discussed the importance of the Arabic writing, its types of orders and its advantages. The paper concluded findings and recommendations which has arrived at.

المقدمة:

الحمد لله الذي اختار العربية لتكون لغة خطاب الوحي الخاتم للعالمين. فأصبحت بذلك لغة الوحي، وكلام الله، أو خطاب الله عزَّ وجلَّ لعباده جميعاً، حتى يرث الله الأرض ومن عليها. وهذا الاختيار – (والله أعلم حيث يجعل رسالته) أو هذا الجعل للرسالة لا يقتصر على اختيار الإنسان أو لا يصدق فقط على اصطفاء الرسول صلى الله عليه وسلَّم – من بين سائرالبشر – أو هو المقصد الأوَّل من الآية وإنما يصدق كذلك على أرض النبوَّة ولغة النبوَّة وقوم النبوَّة الأوائل وزمان النبوَّة ولغة النبوَّة وما إلى ذلك من آفاق وأبعاد أخرى ويكفي ذلك العربية تشريفاً. كما يكفيها دليلاً على قدرتها وإمكاناتها واستيعابها لبعدي الزمان الماضي والحاضر والمستقبل والمكان (الجغرافيا) وما يكون في ذلك من تطور البشرية ونمو فكرها. والقرآن جاء مصدِّقاً لما بين يديه من الكتاب ومُهيمناً عليه مصداقاً لقوله تعالى (وأنزلنا إليك الكتاب بالحقِّ مصدِّقاً لما بين يديه من الكتاب ومُهيمناً عليه) (المائدة الآية 48) فإن لغة التنزيل تكتسب بذلك خصائص الهيمنة نفسها بالنسبة لسائر اللغات وأوعية التفكير ووسائل التعبير والتغيير والتواصل قال تعالى (نزل به الرُّوحُ الأمين* على قلبك لتكون من المُنْذرين* بلسانٍ عربيٍ مُبين) (الشعراء الآية 19) وقال تعالى: (قُرآناً غير ذي عِوَجٍ) (الزمر الآية 28). والصلاة والسلام على إمام البيان الذي ابتُعِثَ في الذّروة من قومه فصاحةً وبلاغةً وبياناً. آتاه الله جوامع الكَلِم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أُوتيتُ جوامع الكلِم). (رواه مسلم) وكانت معجزته التي وسعتها اللغة العربية وكانت أداتها بيانية بالدرجة الأولى وكان عليه الصلاة والسلام محلاً للقول الثقيل (إنا سنُلقي عليك قولاً ثقيلاً). (المزمل الآية 5) كما كان المُبيِّن عن ربِّه ما أُنزل إليه. قال تعالى: (وأنزلنا إليك الذِّكر لتُبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم). (النحل الآية 44). ومن هذا القرآن، كتاب العربية الأوَّل الذي بدأ

نزوله بطلب القراءة وفرضيَّة التَّعلُّم واعتبر ذلك مفتاح الحضارة وسبيل المعرفة ووسيلة الثقافة – انطلقت الحركة العقلية واللسانية واللغوية – ففيه بدأت القراءة وامتدت الكتابة للأمَّة، فكان القرآن بما دعا إليه، وما أصَّله وأسَّسه محور هذا الانتاج الثقافي جميعه ومداد الحركة الفكرية.

كما أنه يشير من جانب آخر إلى الطاقات الهائلة والمخزون الضخم الذي تمتلكه اللغة العربية، التي وسعت هذا القرآن بكل آفاقه وأبعاده ضمن إطار أبجديتها ومرونتها وسعة مفرداتها المتداخلة والمتجاورة وقدرتها على تقديم القيم التعبيرية لكل إحساسات الإنسان وقيمه الشعورية قال تعالى: (ألم(1) ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين(2)) (البقرة الآية 1،2). وقوله تعالى: (حم(1) والكتاب المبين(2) إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون(3)). (الزخرف الآية 1،3). هذه الحروف الأبجدية، تلفت النظر العقلي إلى أن آي القرآن مصوغ من هذه الحروف، التي يستعملها العرب في مجهودهم للخطاب دون زيادة عليها، ومع ذلك يعجزون عن الأَتيان بمثله.

وقد لا يكون المجال متاحاً للكلام عن الانتاج العلمي والثقافي الذي أحدثه القرآن في حياة الأمة المسلمة. والعلوم والمعاجم والقواعد اللغوية والنحوية التي أُلِّفت لحماية النص القرآني من التحريف والتصحيف وبذلك حُفظ لفظُه ومعناه. فكان بذلك كتاباً منقولاً بالكتابة والرسم وكان أيضاً قرآناً منقولاً بالمشافهة. وكانت المحاريب وحلقات الذكر والمدرسة ومراكز التحفيظ وفنيات الخط العربي كفيلة بسلامة نقله كتابةً وقراءةً ومشافهةً كما أُنزل على قلب محمد عليه الصلاة والسلام.

وهذا مايزال الرصيد الباقي والخالد للأمة الذي يشكّل لها الإمكان الحضاري والرصيد الحضاري والرصيد الثقافي حتى إنَّ بعض الشعوب الإسلامية أعادت كتابة ألفاظ لغتها بالحرف العربي تبرُّكاً به.

وخلود القرآن واستمراره رسماً ومشافهةً كان الوسيلة الوحيدة لاستمرار التواصل مع التراث والقدرة على قراءته وإدراك معطياته. كما أنَّه الوسيلة لأساس تطور اللغة العربية ضمن ضوابط سليمة تسمح للمتعلِّم اليوم أن يقرأ الإنتاج الفكري والثقافي في كل العصور الإسلامية.

وهذا التطور الطبيعي وعدم الإنفلات اللُّغوي أدَّى إلى التماسك في نسيج الأمَّة الثقافي وتواصل أجيالها، وبذلك أصبحت اللغة العربية ليست مجرد وسيلة للتعبير لكنها مشحونات لتراث من الفكر والثقافة والقيم، والتراكمات من التجارب والخبرات بين ماضٍ عريقٍ وصولاً إلى واقعٍ نعيشه وغدٍ نأملُه.

فاللغة تبقى من أَهمِّ مقومات الارتكاز الحضاري وامتلاك القدرة على رسم ملامح الشخصية الحضارية للأُمَّة وبيان قسماتها، والتعبير عن ثقافتها، وتأمين تواصلها مع الأجيال، وإيصالها للآخر ويتوقف نجاحها في ذلك على مدى قدرتها على استيعاب حركة المجتمع ونمو الثقافة وحمل رسالة الأُمَّة إلى الآخر.

لذلك فإن محاسبة لرسم العربي، ومحاولات اشاعة العامِّيَّات وبدء زحفها على وسائل الإعلام والتعليم من خلال الرطانات اللُّغوية والتكسرات الجسدية والتبذلات اللسانية التي بدأت تمارسها بعض المحطات الفضائية ومحاولات الإغراء بها من خلال اختيار المُقدِّمين والمُقدِّمات للبرامج وإدخال بعض المصطلحات الأَجنبية، وبالمقابل ما يتم من الحديث بالفصحى، حيث تختار له الألفاظ الموحشة غير المأنوسة والمقدم المتجهم، البعيد عن روح العصر، وكأنَّه قادمٌ من عمق التاريخ يعاني غربة الزمان والمكان، يحمل المخاطر الكبيرة التي لا يمكن تحديد مداها في جيلٍ أو جيلين كما أنَّ المحاولات الدائبة للكتابة بغير الألفاظ العربية تمثل أخطر قطيعة بين الأُمَّة وتراثها وبذلك تلغي ذاكرتها وتبعثر شخصيتها.

مشكلة البحث:

هذا البحث الموجز يشكّل محاولة جادَّة لمناقشة مشكلة تُعتَبر من أخطر المشكلات التي تتعرض لها الكتابة العربية. بعد أن اتسعت فجوة التخلُّف في عالم العرب والمسلمين، وما رافق ذلك من التطور الهائل لتقنيات الكتابة والاتصال والدعوة العريضة إلى ضرورة استبدال الحروف العربية بالكتابة الأجنبية، الأمر الذي يعني أول ما يعني إحداث القطيعة مع القرآن الكريم والسنَّة النبويَّة والتراث التاريخي للأُمَّة المسلمة ومسح ذاكرتها بحجة أن تعلُّم الكتابة العربية ورسمها وحروفها –صعب قياساً ومقارنةً بالكتابة بالحروف الأجنبية.

ووقد حاول الباحث تفنيد هذه المآخذ المنسوبة إلى اللُّغة العربية.

أهداف الدراسة:

1- توضيح ما أُثير من شُبهات عن اللُّغة العربيَّة وتفنيدها والردُّ عليها.

2- توضيح أهميَّة الكتابة العربيَّة بأنَّها كتب بها القرآن الكريم والحديث والتُراث العربّي.

3- توضيح مكانة الكتابة العربيَّة موازنة بالكتابات الموجودة.

4- تصحيح الأخطاء النَّحويَّة والإملائية واللغوية التي ترد في وسائل الإعلام من مسموعة ومرئية ومقروءة.

أهمَّية الدراسة:

إنَّ أعلى ما يُعبِّر به الإنسان عن فكره وأحاسيسه هو الكلام بمجموع ألفاظ مفرداته وجمله وهو الوسيلة الأولى للخطاب ونشر العلم وكسب المعرفة. والإنسان في خطابه وعباراته المنطوقة أقوى على البصر عمَّا يريد وأفصح من محاولته ذلك بأي وسيلة أخرى. ويلي العبارة المنطوقة في الإفصاح عن الفكر العبارة المكتوبة ومن ثمَّ كان للكتابة عند الأُمم جميعاً أثر بعيد وكان لها الفضلُ الكبيرُ في حفظ تراث الأُمم السابق في دواوين العلم. (1) (د/ محمود عباس حمودة، 2000م، ص 13-14.). وهي من أهم وسائل الاتصال الإنساني، فعن طريقها يتمُّ التعرف على أفكار الآخرين والتعبير عما لدى الفرد من معانٍ ومفاهيم ومشاعر وتسجيل الحوادث والوقائع. فإنَّه كثيراً ما يكون الخطأ الكتابي في الرسم سبباً في تغيُّر المعنى وعدم وضوح الفكرة، لذلك تُعتَبر الكتابة الصحيحة عملية مهمة في التعليم. إذ إنَّها عنصر أساسي من عناصر الثقافة وضرورة اجتماعية لنقل الأفكار والتعبير عنها والوقوف على أفكار وآراء الآخرين والإلمام بها. إنَّ إهمال تدريس قواعد الإملاء العربي في مراحل التعليم المختلفة والاكتفاء بما يحصله المتعلم من خلال مراحل التعليم الأُولى. وما يمكن أن يضيفه إلى ذلك من ممارسة قراءة النصوص المطبوعة. كما أنَّ فقدان المعرفة بالبعد التاريخي للكتابة – قد أدَّى ذلك كلُّه إلى شيوع أخطاء كتابية كثيرة عند جمهور المثقفين.

وقد تظهر تلك الأَخطاء عند عدد ممَّن يتصدون لتعليم قواعد اللغة في المدارس والمعاهد. إلى جانب التقصير في استخدام العلامات الكتابية بشكل صحيح،في كثير من الأَحيان. وليس من سبيل إلى التخلُّص من تلك الظاهرة إلا بدراسة تاريخ الكتابة العربية ومعرفة قواعدها وهو أمر هيِّن ولكن مهمٌّ في نفس الوقت.

منهج البحث:

استخدم الباحث المنهج الوصفي لأنَّه مناسب لهذه الدراسة.

المبحث الأول:-

مفهوم الكتابة ونظمها

الكتابة هي إعادة ترميز اللغة المنطوقة في شكل خطِّي على الورق من خلال أشكال ترتبط ببعضها وفق نظام معروف اصطُلِح عليه أصحاب اللغة في وقت ما بحيث يعد كل شكل من الأشكال مقابلاً لصوت لغوي يدل عليه. وذلك لتعرف نقل أفكار الكاتب وآرائه ومشاعره إلى الآخرين بوصفهم الطرف الأخر لعملية الاتصال.

والكتابة تتضمن مهارات آلية مع مهارات عقلية معقدة. (2) (علي أحمد مدكور، 1433هـ-2003م، ص 3-4.).

وقد تباينت تعريفات الكتابة ووردت لها بعض التعريفات التي قلّصت مفهوم الكتابة إلى مجرد رسم الحروف باليد (الخط) أو تحويل رموز اللغة الصوتية إلى رسوم خطية أو أشكال مرئية (خط إملاء).(3) (عبد اللطيف عبد القادر، 1433هـ-2003م، ص 189-190.).

وعرَّفها فتحي يونس في كتابه تعليم اللغة العربية للمبتدئين بأنَّها أي – الكتابة – المهارة اللغوية التي تتضمن القدرة على التعبير في مواقف الحياة والقدرة على التعبير عن التراث بجمل متماسكة مترابطة بها الوحدة والاتساق وتتوفر فيها الصحة اللغوية والصحة الهجائية وجمال الرسم.(4) (فتحي يونس، 1996م، ص 132-133.). وهذا التعريف ينبطق أيضاً على الكلام.

ويعرفها رشدي طعيمة أن الكتابة مصدر من كَتَبَ كِتَابة ومعناه الجمع ومن هذا سُمِّي الخط كتابة لجمع حروفه بعضها البعض.(5) (رشدي أحمد طعيمة، 2000م، ص 12-13.). ويرى الباحث أن هذا التعريف ورد بمعان مختلفة فقد ورد في القرآن بمعان مختلفة قال الله تعالى: (كتب عليكم القصاص في القتلى) بمعنى فرض. وقوله تعالى: (كتب عليكم الصيام) معناه فرض. وقوله تعالى: (كتب على نفسه الرحمة) بمعنى ألزم. كما ورد هذا التعريف (في لسان العرب) وكتب السقاء والمزاد والقربة يكتبه كتباً: خرزه بسيرين وكتب الشيء يكتبه كتباً، بمعنى خطه. وكتب الناقة يكتبها كتباً، بمعنى ظأهرها فخرم منخريها بشيء. وكتب الكتائب هيَّأها كتيبةً كتيبةً. (6) (ابن منظور، 1990م، لسان العرب، ص 698-699).

أصل الخط العربي وتطوره:

يكاد يجمع الباحثون أنَّ الكتابة نشأت وتطورت في أرض الوطن العربي القديم وأنَّ مراحل إيجاد الأبجدية تمَّ على الأرض العربية القيمة سواء أبجدية سيناء أو أبجدية جُبيل أو أبجدية رأس شمرا وهي أتمُّها وتُعتَبر أمُّ الأبجديات العالمية.

وإذا ما تجاوزنا الكتابات القديمة كالهروغليفية وتطورها والمسمارية فإننا عثرنا على عدد من الكتابات العربية القديمة، إذ لا يكاد يخلو حجرٌ جنوبي الجزيرة العربية وقلبها وشمالها، من نقش تذكاري، نقشه كُتَّابٌ مُحترِفُون أو غير مُحترِفين من الرُّعاة ورجال القوافل، يذكرون فيها أسماء آلهتهم متضرعين إليها أن تحميهم، وقد يذكرون ما يقدمون إليها من قرابين، وقد يكتبون على قبورهم مسجلين أسماءهم وأسماء عشائرهم وما قام به الميت من أعمال، وقد يودعونها بعض قوانينهم وشرائعهم.(7) (أنور الرفاعي، 1973م، ص 436-437.).

وقد اختلف العربُ أنفسهم في أصل خطهم كما اختلفوا في المحلِّ الذي نشأ فيه وفي كيفية نشوئه وتطوره.

وقد جاء في كثير من كتب المؤلفين العرب روايات متشابهة حتى أنَّ آدم عليه السلام هو أوَّل من كتب الكتب وقد استندوا في قولهم هذا لبعض الآيات القرآنية (اقرأ باسم ربك الذي خلق (1) خلق الإنسان من علق (2) اقرأ وربك الأكرم (3) الذي علَّم بالقلم (4) علَّم

الإنسان ما لم يعلم (5)) (العلق الآيات 1–5)، وقوله تعالى (ن والقلم وما يسطرون) (القلم الآية 1)، وقوله تعالى (وعلَّم آدم الأسماء كلها ثمَّ عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين). (البقرة الآية 3)، واستدلوا من هذه الآيات على أنَّ الخط العربي والأسماء والألفاظ كلَّها توفيقية من الله تعالى لآدم عليه السلام. أمَّا علماء الإفرنج فقد اتفقوا مع العرب في الرأي بادئ الأمر، فقد ذهب المستشرق (مورتز) إلى أن أصل الكتابة بالحروف بعد الكتابة الهروغليفية كان في اليمن، وأن اليمانيين هم الذين اخترعوا الكتابة وليس الفينيقيين. ولكنهم خالفوا العرب في الرأي. وذلك بعد أن توصلوا إلى أنَّ وسائط ماديَّة تثبت أصل الخط العربي وأنه قد اشتُقَّ من الخط النبطي.(8) (محمد طاهر الكردي، 1939م، ص 73–74.).

الفروقات بين الكتابة والكلام:

فالكلام حيٌّ خصبٌ في حين أنَّ الكتابة حروف وهياكل. وتحتاج الكتابة إلى دربة ودراسة فقد تستغرق سنوات، في حين أننا لم نحسَّ بتلك الحاجة إلى تُعلمالكلام. فكأنَّ الأخير جاء إلينا فطرةً وسليقةً. نستطيع أن نتفهَّم لما سبق، كيف أن شعوباً بُرمَّتِها عاشت وانقرضت وهي لا تعرف الكتابة ولكنها لم تفتقر إلى الكلام. (9) (د/ رضوان القضماني، 1980م، ص 116–118.). ويرى الباحث أن الكلام أيضاً يحتاج إلى دربة تستغرق عدة سنوات حتى يجيد الإنسان مخارج الحروف وتركيب الجمل.

وقد جاء اختراع الكتابة في معظمه نقلاً للكلام من الميدان المسموع إلى الميدان المنظور فهو نقل ما هو سمعي إلى بصري فالكلام هو الأصل مكاناً وزمناً.(10) (أندريه مارتينيه، 1995م، ص 11–12.).

أنواع النظم الكتابية:

قد يظن كثيرون، أنَّ نظام الكتابة في لغات العالم، متماثل، بالرغم من اختلاف اللغات فيما بينها، في نحوها وصرفها ومعاني ألفاظها، غير أنَّ الواقع يدلنا على أنَّ هناك حالياً نظماً ثلاثة بيَّنها علماء اللغة المحدثون، فلننظر فيها لنرى موقع الكتابة العربية ونعرف من ثمَّ، ميزة النظام الذي تستعمله العربية.

(أ) النظام الألفبائي: Alphabetic system

يقوم هذا النظام على أساس إعطاء مقابل (أي حرف) للصوت المنطوق، فإذا نطق المتكلم بكلمة "مَلِك" (المؤلفة من صوت الميم المتبوع بصائت قصير هو الفتحة ثم بصوت اللام المتبوع بصائت قصير وهو الكسرة ثم الكاف فإنَّ الكلمة المكتوبة تُجسِّد أو تُمثِّل خطيًّاً الأصوات المنطوقة مع وجود تلازم وترابط – تفرضه الجماعة اللغوية بين تلك الحروف المكتوبة والأصوات المنطوقة فإذا تغيَّر ترتيب الأصوات المنطوقة نفسها، تغيَّر ترتيب الحروف بما يُعبِّر عن ذلك التغيير، فإذا قلب المتكلم اللفظة السابقة ونطق بكلمة "كَلَم" فإنَّ الحروف تجاري ذلك القلب الذي جرى في ترتيب الأصوات. ويكاد الأمر يشبه أرقام الهاتف ففي وسعنا استحداث أرقام جديدة من أرقام محدودة من صفر ← 9وذلك بإعادة ترتيب الأرقام ولهذا السبب نجد في اللغات التي تتبع هذا النظام عدداً معيناً من الحروف، كأن يكون عشرين أو ثلاثين حرفاً يستطيع أن يستوعب ألفاظاً ينيف عددها على عشرات الآلاف. ويرى الباحث أن كلمة (ملك) المؤلفة من صوت الميم ليس متبوعاً بصائت بل فالصوت المكوَّن من صوت الميم والفتحة لأنَّنا لا ننطق بصوت الميم ثم بعد ذلك نتبعه صوت الفتحة بل ينطبقان معاً صوتاً واحداً (مَ، مِ، مُ).

تتَّبع اللغة العربية وأكثر اللغات هذا النظام لمحاسنه الكثيرة، وقد عمد الألسنيون الذين دوَّنوا اللغات المكتشفة حديثاً في هذا القرن، مما لم يكن لها نظام كتابي أصلاً بسبب أُميَّة الناطقين بتلك اللغات، عمدوا إلى استخدام هذا النظام دون النظامين الآخرين، النظام المقطعي والنظام الفكري.

(ب) النظام المقطعي: Syllabic system

خلافاً للنظام الألفبائي الذي يعطي رمزاً كتابيًّ للصوت المفرد في الكلام نجد النظام المقطعي يعطي رمزاً كتابياً بالمقطع، من غير الدخول في تفاصيل دقيقة لا مجال لها.

ويمكن لقول إنَّ المقطع يتألف عادةً من صامت حرف صحيح أو صامت أو شبه صائت (حرف علة متحرك) متلو بصائت حركة أو حرف علة ساكن، وقد يأتي بعد الصائت حرف علة أو صامت أو صامتان فقولنا: "كَتَبَ" مؤلف من ثلاثة مقاطع كَ، تَ، ب. كل مقطع مكون من صامت متلو بحركة وقولنا: "ولدان" مكون من المقاطع الآتية: وَ، لَ، دان. إذا سكنا النون فالمقطع الأول مؤلف من شبه صائت وصائت قصير والمقطع الثاني يحوي صامتاً متلواً بشبه صائت والمقطع الثالث يتألف من صامت وصائت طويل وصائت ساكن. يتضحهما سبق أنَّ الكلمة العربية "كتب" مثلاً تُكتَب بثلاثة رموز لاحتوائها ثلاثة مقاطع وقد استعملت بعض اللغات القديمة هذا النظام وعلاوة على استخدام اليابانية الحديثة لهذا النظام جزئياً.

(ج) النظام الفكري: Ideographic system

يختلف هذا النظام اختلافاً كبيراً عن النظامين السابقين لأنَّ الكلمة المكتوبة وفقاً لهذا النظام لا تمثِّل أصوات الكلمة المنطوقة وإنَّما تشير إلى الفكرة والمفهوم.

فإذا ما استطعنا تقطيع كلمة "ملك" في النظام الألفبائي وتتبعنا ذلك التقطيع في الأحرف المستعملة لكتابة الكلمة نفسها، فإنَّ الأمر يختلف كلَّ الاختلاف في النظام الفكري، إذ لا يمكن اتباع الخطوات نفسها ولعلَّ خير مثال على ذلك هو العلامة (+) التي نستخدمها في الوقت الحاضر.

فإذا اتفقنا على أنَّ الفكرة التي يحملها هذا الرمز "زائداً"، فلن نتمكن من تحليل أو تقطيع هذه العلامة لتتطابق أو تمثِّل الأصوات المكوِّنة لكلمة "زائداً" كما فعلنا مع كلمة "ملك" العربية. والملاحظ أنَّ هذه العلامة يمكن أن تنطق بأشكال متعددة فعلاوة على كلمة "زائداً" يمكن أن ندل عليها بالكلمات موجب، فضلاً عن، علاوة على،فصاعداً. ومن ثمَّ تنعدم العلامة انعداماً كاملاً بين نطق هذه الكلمات وتلك العلامة ومن الأمثلة الأخرى العلامات = ، − ، ÷ ، × ، < ، > إلى غير ذلك.

تعد اللغة الصينية خير ممثل لاستخدام هذا النظام الكتابي.(11) (د/ أحمد هبو، 1984م، ص 59−60.)، وهي لغة ربع سكان العالم. ولا ريب أنَّ موازنة عجلى بين هذه النظم توضح تَفوُّق النظام الألفبائي، ذلك أن اللغة تستوعب به برموز قليلة (أصوات اللغة) وخاصة الأصوات المهمة في تغيير المعنى، في حين أنَّ النظام الفكري يعطي الفكرة (وليس للصوت) رمزاً مما يجعل عدد الرموز كثيراً جداً، وتكثر في النظام المقطعي أيضاً، وإن كان ذلك بدرجة أقل من الرموز الكتابية فنجد رمزاً خطياً منفصلاً للمقاطع (ما، مو، مي) وهذا يعني أنَّ الكتابة العربية باتِّباعها النظام الألفبائي متفوقة على الكتابات التي تتَّبع النظامين الآخرين ومنها الصينية كما مرَّ.

المبحث الثاني: مزايا الكتابة العربية ومكانتها:

إنَّ المآخذ على الكتابة العربية لا تنفرد بها العربية بل تشاركها فيها لغات أخرى.

الكتابة العربيَّة ليست بدعاً بين نظام الكتابة في اللغات الأخرى وشأن الكتابة عموماً كشأن كل شيء يبدأ متخلفاً ويتطور رويداً رويداً حتى يبلغ حداً من الرقي والكمال الدنيوي، ولعلَّ نظام الكتابة العربية يمثل أرقى النظم الكتابيَّة اللُّغويَّة على الإطلاق لأنَّ العرب هم أول الشعوب الذين اهتموا بلغتهم دراسةً وجمعاً وتقعيداً وشرحاً وكتابةً وبياناً .

بيد أنَّ تقويماً موضوعياً للكتابة العربية لابد ألا يكتفي بما يمكن تسميته بالجانب السلبي، بل ينبغي علينا أن نبرز الجانب الإيجابي، وهي المزايا الذاتية في الكتابة العربية. كما يستطاع تبيان مكانة تلك الكتابة موازنة بالكتابات الأخرى.

ميزات الكتابة العربية:

أولاً: الكتابة العربية كتابة (فونية) ولابد لفهم هذه الميزة أن نفهم أولاً فهماً مختصراً وميسراً المقصود (بالفونيم).

لو استمعنا إلى حرف الصاد في كلمة مثل "قَصْدُه" لاحظنا أنَّ الغالب في نطقها أن تكون مشابهة للزاي المعجمة. فهي إذاً مزيج بين الزاي والصاد ومردُ ذلك إلى تأثير الجهر في الدال المجاورة للصاد المهموسة ولا يستبعد أن يتأتى المتكلم عند نطقه لهذه الكلمة بحيث يجعلها صاداً خالية من أي جهر بتأثير الدال.

ولو نظرنا إلى كلمتين أخريين تحويان الصاد أيضاً وهما "صاح" و"صان" فسنجد أيضاً اختلافاً بين هاتين الصادين والصاد في كلمة "قصْدُه" ففي حين تخلو الصادان في "صاح" و"صان" من الجهر، نجد في الصاد في "صان" شيئاً من الغُنَّة بتأثير النون، ولا نجد تلك الغُنَّة في "صاح".

ويمكننا أن نذهب إلى أبعد من ذلك، فهذه الصادات لا تتأثر بالأصوات المجاورة لها فحسب بل تتأثر أيضاً بالناطق من حيث جنسه أو سنِّه أو تعجله أو تباطئه في الكلام، وكونه ومزاجه.

تتضافر إذاً عوامل عدة قعل فعلها في تغيير الصوت الواحد وكانت الصَّاد مثالنا ههنا بيد أننا نعد هذا الصوت صوتاً واحداً بالرغم من الاختلافات في نطقه هذا الصوت الذي نعده في ذهننا صوتاً واحداً مجرداً أو مستخلصاً من هذه الأشكال المتعددة في نطقه إنه بعبارة أخرى (الجوهر) الكامن وراء (المظاهر) المتعددة فهو إذا صح التعبير (صوت رئيس)وليست هذه الأشكال المختلفة لنطقه إلا (أصواتاً فرعية) وتبرز هوية هذا الصوت الذهني المجرد وقيمته إذا وازنَّا بين كلمتين متساويتين في أصواتهما جميعاً باستثناء صوت واحد كقولنا (صالح) و(طالح) فهاتان الكلمتان لم تختلفا إلا في الصوت الأول. غير أن هذا الاختلاف جرَّ إلى اختلاف المعنى.

يصطلح علماء اللغة على تسمية هذا الصوت المجرد (بالفونيم) وفي وسعنا أن نقدم تعريفاً مبسطاً له بأنَّه (الصوت الذي يؤدي استبداله لصوت آخر إلى تغيير في المعنى شريطة بقاء البيئة الصوتية أي الأصوات السابقة واللاحقة للصوت المعني ثابتة. ففي مثالنا السابق (صالح) و(طالح) الفرق الوحيد هو حلول الطاء محل الصاد، ومن ثم يمكن القول: إن الطاء والصاد فونيمان متصلان في العربية، لأنَّ احلال أحدهما محل الآخر ضمن البيئة الصوتية نفسها أدَّى إلى تغيير المعنى.

ولو جئنا بالصادفي كلمة (قصْد) وفيها شبه بالزاي، وأحللناها محل الصاد في (صالح) لاستشعرنا نوعاً من الشذوذ في النُطق، وكذلك لو جعلنا الصاد ذات الغُنَّة من (صان) محل الصاد من (قصْد) لأحسسنا أيضاً بقدر من الشذوذ ولكن المعنى في الحالتين كلتيهما لم يتأثر.

نخرج من ذلك بأنَّ الفونيمات هي الأصوات الرئيسة، والمهمة في اللغة وهي القادرة على تغيير المعنى والمعنى – كما نعلم – جوهر النشاط اللغوي.

ولو تأملنا الكتابة العربية لوجدنا أنها قد وَضَعت لكل فونيم عربي حرفاً يدلُّ عليه، لم تُهمِل من ذلك شيئاً.

وإذا كنا قد أشرنا إلى أمثلة كانت موضع اهتمامنا فيها هو الصوامت فإنَّ هذا لا يعني اهمال الكتابة العربية لفونيمات أخرى هي الصوائت الطويلة (الألف – والواو – والياء) والقصيرة (الفتحة والضمة والكسرة) لأنَّ هذه الصوائت فونيمات من شأنها تغيير المعنى كما في بَرِدٍ وبَرْدٍ وبُرْد وبارِد ، بَرْد ، بِرْد ، وبُرود، قَلْب، قَلَب، إلخ.

ولو نظرنا إلى هذه الكتابة في علاقتها بالفونيمات لوجدنا أن عنايتها توجهت إلى الفونيمات دون غيرها. الأصوات الفرعية (الألفونات) الناتجة عن تأثُّر الصوت بالأصوا ت الأخرى المجاورة كهمس الباء في (اِبْتسام) وجهر السين في (أَسْدل) وغير ذلك. فلم تعطها الكتابة العربية رمزاً منفصلة لأنَّها غير ذات شأن في تغيير المعنى. ولكن في رسم المصحف اهتمت الكتابة بتمثُّل هذه الألفونات ببعض الرموز وذلك واضحٌ في علم التجويد.

ولعلَّ من النتائج المهمة التي نستطيع تلمُّسها في هذا الخصوص، أن الكلمة العربية المحركة كافية وحدها لإرشاد القارئ العربي إلى كيفية نطقها. بعبارة أخرى لو وَجَد القارئ العربي أمامه كلمةً مثل (مُقَرَبٌ) فلن يتردد أو يتلكأ في قراءتها قراءة صحيحة، حتى لو لم يكن قد سمع بها من قبل، من غير الاستعانة بوسيلة أخرى، وقل الشيء نفسه فيما إذا أراد الكاتب أن يكتب تلك الكلمة أو غيرها حتى لو لم يكن على معرفة سابقة بها.

في مقابل ذلك، لا يستطيع القارئ الانجليزي أو الفرنسي أن يقرأ كلمة في لغته قراءة صحيحة ما لم يكن قد سمعها من قبل وإذا صادف أنه لم يكن قدعرفها من قبل فلابد أن يستعين بالكتابة الصوتية التي ترافق الكلمات في معظم المعجمات الحديثة في تَينِك اللغتين فكلمة مثل (book) نجد في جانبها رسماً آخر مثل (buk) فالأول هو الرسم المستخدم عادة في كتابة الكلمة والثاني هو كيفية نطقها في حين يرسمها "المورد" لمنير البعلبكي هكذا book .وعلى هذا نجد رسمين لكل كلمة لارشاد القارئ أو المتكلم إلى كيفية النطق. ذلك أنقواعد الإملاء في الفرنسية والإنجليزية تبلغ ضآلتها وقلتها حداً تُسعِفُ فيه صاحبها مرَّة وتَخذلُه مرَّات. فالكتابة العربية (مكتفية ذاتياً) بعلاقةكتابتها بأصواتها وهذا ما يجعل تلميذاً لا تعدو ثقافته الدراسية الابتدائية أن يكتب كلمةً لا معنى لها مثل (نَبِو) كتابةً صحيحةً مستنداً في ذلك إلى هذا الانضباط الموجود في العلاقة بين فونيمات اللغة العربية وكتابتها. بيد أن الفرنسي لا يستند إلى أي قدر من الانضباط عنما يكتب كلمة monsieur (بمعنى سيد) وتنطق مسيو بإمالة الواو مع غُنَّة وإنما يستند إلى ذاكرته لا إلى قواعد.

ثانياً: لا يُعبِّر الحرف المكتوب في العربية إلا عن الصوت نفسه في الأحوال كلها، فأينما نجد الرمز (ب) فلن يحتمل تفسيراً صوتياً غير تفسيره بفونيم الباء ولا يمكن إعادة استخدام هذا الحرف أو غيره للتعبير عن أصوات أخرى، في حين يحتمل حرف (c) أكثر من قراءة وقد لا يقرأ أصلاً.

ثالثاً: لا يُكتَب الفونيم الواحد في العربية إلا برمز أو رموز محددة سلفاً، وقليلة العدد، يتراوح عددها ما بين (1–4) أشكال. وهذه الأشكال في عمومها متقاربة فالتاء مثلاً في ترك ويترك، ونبت وبات يقترب شكل بعضها من بعض، فإذا سمعنا كلمة (قلم) وأردنا

كتابتها، فإن صوتالقاف مثلاً لا يحتمل في التعبير عنه كتابياً إلا وجوهاً معينة واختيار وجه دون آخر. أي استخدام ق بدلاً من – ق – أو نق أو ق إنما يكون ضمن ضوابط وقواعد معروفة سلفاً.

رابعاً: لا تختلف الكتابة العربية تبعاً للطائفة أو النحلة فهي كتابة واحدة عند العرب جميعاً من غير تأثُّر بالجغرافيا أو التاريخ، في حين نجد لغة كالسريانية تستخدم ثلاث كتابات (الشرقية) و(الغربية) والخط السطر نجيلي والانجليزية فهناك طريقة إنجليزية وأخرى أمريكية.

خامساً:تخلو الكتابة العربية عموماً من شواذ الكتابة باستثناء كلمات قليلة جداً مثل عمرو، مائة، داود إلخ.

ينحصر معظمها في أسماء الأعلام بحيث يمكن عد تلك الشواذ وإحصاؤها. وعلى العكس من ذلك لسنا مبالغين إذا ما قلنا: إن عدد الشواذ في العربية يقارب عدد القواعد في اللغتين الإنجليزية والفرنسية.

سادساً:تخلو الكتابة العربية من ظاهرة الحروف التي تُكتَب ولا تُقرَأ أو ما يُسمَّى بالحروف الصامتة (silent letters) إلا بضوابط وقواعد معروفة ومقررة سلفاً علاوة على إفادتها شيئاً ذا قيمة فالألف الثابتة في كلمة "قَالُوا" غير مقروءة ولكنها لحقت هذه الكلمة لأنها فعل، في مقابل الاسم"قَالُون" الذي هو جمع مذكر سالم لـ "قَاتِل" ومثال آخر في تجويد القرآن "والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها" فكلمة الشمس تنطق في التجويد "وشَّمس" وذلك بعدم نطق همزة الوصل واللام وكلمة "والقمر" تنطق "وَلْقمر" بعدم نطق همزة الوصل وإذا قارنا ذلك باللغات الأخرى كالانجليزية والفرنسية فإنه ضئيل في اللغة العربية.

ونجد في الإنجليزية والفرنسية تسيباً في معرفة ما يُقرأ وما لا يُقرأ، فمن يواجه كلمة في تينك اللغتين لا يستطيع أن ينطقها نطقاً صحيحاً مستنداً إلى رسمها، لذا يتوجب عليه إما أن يسمعها منطوقة وإما أن يجد ملاذه في المعجمات التي تشير إلى الكتابة الصوتية المرشدة إلى كيفية النطق الصحيح.

سابعاً: لا تؤلف كتابة العربية الحالية عقبة لمن أراد قراءة المخطوطات العربية القديمة. بعبارة أخرى يستطيع العربي، حتى لو كان ذا حظ يسير من العلم، أن يقرأ آلاف المخطوطات التي كُتبت قبل مئات السنين. ولا يستدعي منه ذلك إلا الإلمام بمسائل قليلة جداً مثل تسهيل الهمزة في المخطوطات القديمة فكلمة "قائل" مثلاً تكتب "قايل" وتلك المسائل كانت من مواصفات النساخ. (12) (فوزي سالم عفيفي، 1980م، ص 226–230.).

فالعربي ليس مطالباً بدراسة نظام كتابي جديد واتقانه كي يتمكن من قراءة المخطوط القديم، لعدم وجود فجوة كتابية بين كتابتنا الحالية والكتابة العربية قبل أكثر من ألف سنة، وهذا يعني أن الكتابة العربية ليست جسراً يوصل القارئ إلى مرحلة زمنية قصيرة ثم يتوقف. بل يمتد إلى عمق الثقافة العربية والتراث العربي، وهذا ما يعطيها قيمة وميزة على الكتابات المنبتة عن ماضيها.

وهذه الميزة التي ذكرناها صرَّح بها المدافعون عنها وأقرَّ بها ضمناً مُنتقُوها الداعون إلى تغييرها فيما ذكروا أنَّ من مشكلات تغيير الكتابة العربية ما يستوعبه ذلك التغيير إعادة كتابة المخطوطات القديمة فلو لم تعد الكتابة الحالية، في كونها مفتاحاً للمخطوطات القديمة لما اضطُر أحد إلى ذكر مسألة المخطوطات أصلاً.

ثامناً: حافظت اللغة العربية، بفضل القرآن الكريم أساساً على أرفع درجة ثبات في القيمة الصوتية لأصواتها، مما جعل الكتابة العربية تحافظ تبعاً لذلك على المقدار نفسه من ثبات القيمة الصوتية لحروفها. ولتبيان ذلك نستطيع أن نقول: إن نطقنا الحالي للأصوات العربية متطابق تطابقاً كبيراً مع النطق العربي للأصوات نفسها قبل أكثر من 1400 سنة بدليل أن قراءة القرآن الكريم، وهي أفضل

مصادرنا لتمثيل النطق العربي القديم، لا تحوي أصواتاً غريبة علينا ولا تسقط أصواتاً نستخدمها الآن مما لم يكن له وجود في الماضي.

فالكتابة العربية إذاً ليست فونيمية في علاقتها بالنطق الحالي فحسب وانما تستبقي سمتها الفونيمية حتى في النطق القديم للأصوات العربية.

من المحتمل أن يحافظ الحرف على شكله ولكن قيمته الصوتية أي طريقة نطقه لم تكن مساوية لقيمته الصوتية الحالية ولعل من الأمثلة البارزة على ذلك حرف الراء الفرنسي فإنه مازال يكتب راءً ولكنه لم يعد ينطق راءً كما في الماضي بل بات ينطق غيناً .

ومن أمثلة ذلك أيضاً وجود كلمات في اللغة الإنجليزية تتضمن الحرفين (gh) غير منطوقين مثل (light – night – right) إلا أن هذين الحرفين كانا يوماً ينطقان فاءً كما هو الحال في الألمانية الحديثة فبقي الحرفان في الكتابة، ولكن قيمتهما الصوتية اختلفت.

تاسعاً: الكتابة العربية منضبطة بأحكام وأصول، تعصم من يلمُّ بها من الخطأ الإملائي ولكننا لو تساءلنا عن القاعدة التي كتبت وفقها الكلمتان الإنجليزيتان principal وتعني المدير أو الرئيس و principle وتعني القاعدة المبدأ فلن نجد قاعدة، ولو وجدت لَم كتبت كلمتان تنطقان نطقاً واحداً بشكلين مختلفين.

شرفت الكتابة العربية وقبل ذلك اللغة العربية نفسها بهذه المزايا، وصمدت صموداً في مواجهة معاول مِن شأن كلٍّ منها وحده أن يثلمها ويلويها ليًّا كما حدث فعلاً لغات قديمة وحديثة ومن تلك العوامل التي كان يمكن أن تُضرِّ بالعربية وكتابتها ما يأتي:

1- بُعد الشُّقَّة الجغرافية للعرب:

فالمسافة بين الناطقين بالعربية تمتد إلى آلاف من الكيلومترات، وبالرغم من ذلك نجد العربية الفصحى موحدة في حين أن المسافة الجغرافية بين الإنجليزيتين البريطانية والأمريكية خلقت فروقاً كتابية وغير كتابية مثل labour و labor، jail و goal وغير ذلك كثير.

2- العمق التاريخي للكتابة العربية:

وقيل ذلك للغة العربية، فنحن نتحدث عن كتابة عريقة فاقت في عراقتها معظم اللغات الحية. في حين تجد الفيلسوف الفرنسي رنيه ديكارت 1596–1650 مثلاً أول من كتب باللغة الفرنسية. حيث كان الفرنسيون يكتبون قبل ذلك باللغة اللاتينية، أي أن القرون الطويلة لم تفعل فعلها في اللغة العربية وكتابتها، في الوقت الذي انقرضت فيه لغات، وتشعبت لهجات قسم منها إلى لغات منفصلة، كتحول الفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية والرومانية الحديثة من لهجات لاتينية إلى لغات منفصلة.

3- الغزوات الأجنبية للأراضي العربية:

قام بها أقوام اختلفت أعراقهم وديانتهم وحضاراتهم، من مغول وفرنسيين وانجليز إلخ. وليس ببعيد عنا ما حدث من إحلال لغة المستعمر محلَّ اللغة الأصلية في بلدان مثل هاييتي التي تتكلم الفرنسية الآن، وجامايكا وسيراليون اللتين تستخدمان الإنجليزية في الوقت الحاضر.

4- طائفة من المثقفين العرب:

طائفة من المثقفين العرب أعملت قدراتها العقلية وأقلامها ووزنها الفكري في البحث والتنقيب عمَّا عدُّوه معايب في العربية، فهذا يدعو إلى نبذها وتخلُّفها وذاك ينادي بأنَّها تُحدِثُ نوعاً من الأمراض النفسية وثالثٌ يدعو إلى تبديل حروفها. صحيح أن الدوافع كانت

مختلفة ما بين شخص يريد أن يجعل من جماجم العربية جسراً له ليدخل إلى التاريخ بوصفه القائل بكذا أو المنادي بكيت وشخص آخر يشعر بأن ما قام به (مصطفى كمال) من تبديل الكتابة التركية عملٌ بـُطُولِي وعظيم ينبغي على العرب أن يقتفوا أثره، وغير ذلك من الغايات والدوافع بيد أن اختلاف الدوافع – حتى لو كانت مخلصة – لا يعني ضرورة اختلاف النتيجة.

وقد كان لهذه الطائفة أثٌر خطيٌر في هذا الميدان، لأنها زرعت في أذهان الكثيرين أنَّ الكتابة العربية أسوأ (أو في الأقل واحدة من أسوأ) الكتابات ونجحت في تثبيت مسلَّمة خلاصتها أنَّ الكتابة العربية مَعيبة، وقد اتخذت هذه المسلَّمة نقطة انطلاق للبحث عن الحلول، بحيث وصل الأَمر إلى مجمع اللغة العربية في مصر، حيث خصَّص مكافأةً لمن يتقدم بأحسن حلٍّ لهذه المشكلة.

وغريبٌ حقاً أن يعمد بعض مثقفينا إلى تناسي أو تجاهل حقيقة مهمة في التاريخ الحديث للحضارة الغربية، وهي أنَّ المثقف الغربي سعى إلى التنبيه إلى المشكلات الحقيقية لمجتمعه، وتقديم الحلول الناجعة لها، لا أن يختلق مشكلاتٍ لا وجود لها، لـِيسْطَع نجمُه في حلِّها.

كان كلُّ عامل من العوامل الأربعة المذكورة، كافياً وحده لتكبيد العربية جروحاً قد تكون قاتلةً، فكيف إذا تضافرت كلُّها جميعاً؟ لا مَعْدى للمرء إلاَّ أن يشير إلى أنَّ القرآن الكريم أبقى هذه اللغة مبرَّأة معافاة، في حين ثلمت لغات أخرى بتعرضها لعامل واحدٍ لا غير كما رأينا.

مكانة الكتابة العربية:

أشرنا إلى ثلاثة نـُظُم كتابية مستعملة في الوقت الحاضر. وهي النظام الفكري، والنظام المقطعي، والنظام الألفبائي، وقد خرجنا بمحصلة مؤداها أنَّ النظام الألفبائي هو الأفضل موازنةً بالنظامين الآخرين لما فيه من اختصار وسهولة، فضلاً عن شيوعه. فإذا نظرنا إلى اللغات ألفبائية النظام فسنجد نوعين من اللغات، اللغات ذوات التراث المكتوب كالألمانية والإسبانية ومنها العربية، واللغات التي تفتقر إلى تراث مكتوب ويقصد بهذه الأخيرة اللغات المستكشفة حديثاً في أفريقيا وأمريكا وغيرهما. وقد اصطنع علماء اللغة الذين اكتشفوا تلك اللغات نظاماً كتابياً ألفبائياً للتعبير عن أصواتها مستخدمين في الغالب الأبجدية الصوتية الدولية.

ولأنَّ هذه اللغات المكتشفة حديثاً ذات إرث كتابي قصير أو معدومة، فلن ندخل في المفاضلة، ذلك أنَّ كتابتها لم تتعرض إذا صحَّ التعبير لضغط الاستعمال علاوة على أنَّها لا تحمل ثقلاً حضارياً وعمقاً تاريخياً. زد على ذلك أنَّ من اصطنع لها نظاماً كتابياً استفاد من مزالق الكتابات الأخرى، وموظفاً في الوقت نفسه علمه اللـُّغوي.

اللغات ذات التراث المكتوب:

وهي نوعان (أ) اللغات الحيَّة (ب) واللغات الميتة، وتشمل الأخيرة اللاتينية والسنسكريتية شبه المنقرضة وغيرهما.

ونلاحظ أنَّ طائفةً من اللـُّغات الحية ذوات الإرث المكتوب غيرت كتابتها، كالذي حدث في التركية والفنلندية ولابد لنا أن ننحِّي هذا النمط من الكتابات عن المفاضلة، لأنَّ الكتابة الجديدة لم تعد تخدم في الكتابات التي سبقتها.

فما كُتب باللغة التركية باستخدام الخط العربي غريب على الشاب التركي في الوقت الحاضر غرابة الكتابة التركية الحالية بالنسبة للعربي. ومن ثمَّ تتساوى الكتابة التركية الحديثة مع كتابات اللغات المكتشفة حديثاً من حيث افتقارها إلى العمق التاريخي والعراقة.

ولو تأملنا في هذا الصنف الأخير، أعني اللـُّغات الحيَّة التي لم تغيِّر نظامها، مع كونها حيَّة وذوات إرث مكتوب وتتبع النظام الألفبائي، لوجد أنَّ في معظمها لغات حديثة لا يزيد عمرها على ستمائة سنة. واللغتان اللتان يمكن أن نلتفت إليهما، إلى جانب

العربية هما اليونانية والعبرية لما تتسمان به من القدم الذي يمكن أن يتفوقا به على الكتابة العربية. أما اللغة اليونانية ففيها فروق عدة في نطق الأصوات بين اليونانيين القدماء واليونانيين اليوم بعبارة أخرى بالرغم من وجود حروف مشتركة بين اليونانيين، لا تحتفظ تلك الحروف بالقيمة الصوتية التي كانت لها في الماضي.

وبغية تلخيص التقسيمات السابقة نرسم المخطط الآتي:

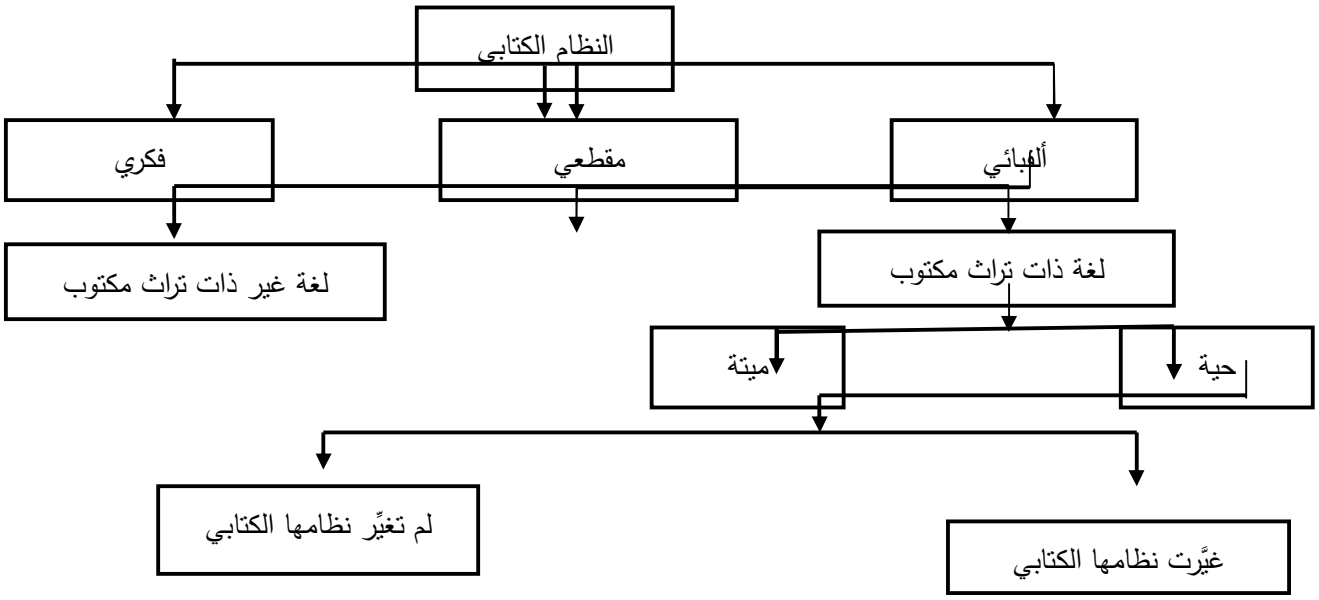

وإذا نظرنا إلى العبرية لوجدناها تتفوق على العربية، في قِمَمها بالرغم من أثر ذلك القِدَم في تغيرها وانكماشها غير أن العبرية تفتقر إلى فونيمية العربية وبعض المزايا الأخرى ويمكن تبيان ذلك من الأمور الآتية:

1- توجد في العبرية ستة أحرف تسمى حروف (بجد كفت) تنطق كلٌّ واحدٍ منها بنطقين، أحدهما في حالة كونه معجماً والآخر في حالة كونه مهملاً. فالباء مثلاً تنطق باءً إذا كان داخلها نقطة وتنطق مثل حرف (V) الإنجليزي إذا كانت مهملة، وقد سقطت ومنذ فترة طويلة الأصوات (غ، ذ، ث) وهي الأصوات المهملة المناظرة للجيم والدال والتاء المعجمة على التتالي.

2- كانت العبرية ومازالت، تستخدم حرفين لكتابة صوت السين وهما السين والسامخ.

3- تنطق العبرية الحديثة الطاءَ تاءً والعين همزة والحاء فاءً والقاف كافاً وتنطق حرف الصاد على الطريقة الألمانية (تسس) وهذا يعني أمرين:

(أ) أنَّ القيمة الصوتية للحروف العبرية لم تعد هي نفسها الموجودة قديماً.

(ب) وجود أكثر من حرف للصوت الواحد علاوة على السين والسامخ فلأنَّ القاف تنطق حالياً كافاً، بات في الكتابة العبرية كافان: أحدهما تكتب بما كان يدل على صوت القاف والأخرى هي الحرف الأصلي الذي تكتب به الكاف من قبل. ويصحُّ الأمر نفسه على التاء والهمزة. (13) (د/ فاروق جودي، وسعيد حرب، 1976م، ص 7-11.).

ولو حاولنا – بعد هذا العرض – أن نفاضل بين الكتابة العربية وغيرها، فسوف نستند إلى المعايير الآتية:

1- الفونيمية.

2- الحفاظ على قيمة صوتية.

3- القدم.

أمَّا المعايير الأخرى التي لم ندرجها منها:

1- إتباع النظام الألفبائي.

2- كونها حيَّة.

3- الوحدة (عدم اختلاف كتابة اللغة حسب الطائفة).

ويعود سبب عدم ادراجها إلى أنَّها متوفرة في معظم اللغات الأوروبية فهي معايير مشاركة وإنما تتم المفاضلة على أساس التفرُّد.

وبطبيعة الحال تتفوَّق الكتابة العربية في المعايير الثلاثة الأولى على اللغات الأوروبية. إمَّا بالمعايير الثلاثة مجتمعة، كتفوقها على الكتابتين الفرنسية والإنجليزية في الفونيمية والحفاظ على أعلى قيمة صوتية والقِم، وإمَّا بالمعيارين الثاني والثالث كتفوقها على الأسبانية والألمانية بالحفاظ على أعلى قيمة صوتية والقِم.

ولو وازنَّا بين العبرية والعربية لوجدنا أنَّ العبرية تتفوق في كتابتها على الكتابة العربية بالقِم، في حين تتفوق العربية في كتابتها على الكتابة العبرية بالفونيمية والحفاظ على أعلى قيمة صوتية، وآية ذلك نجد أنَّ العربية قد تفقد صوتاً واحداً هو الضاد – في لغة بعض القبائل – في حين نجد العبرية تفقد لغين والصاد، وفي الوقت الذي نجد في العبرية حرفاً واحداً من غير مقابل صوتي وهو الضاد، نجد في العبرية السامخ والحروف التي كانت تدل على الطاء والعين والحاء والقاف والصاد. فيكون مجموع الحروف التي لا تجد لها مقابلاً في العبرية ستة أحرف مقابل حرف عربي واحد، وهذا يؤكد رأينا بتفوق الكتابة العربية على الكتابة العبرية في المعيارين الأول والثاني.

نستطيع أن نخلص مما سبق إلى أن العربية في كاتبتها متفوقة على الكتابتين العبرية واليونانية وغيرهما من لغات العالم الحيَّة. وهي – بناءً على ذلك – أفضل كتابة في العالم وفق المعايير التي استخدمناها.

وهناك حقيقة مهمة وهي أنَّ الكتابة مفتاح للمكتوب ومن ثمَّ يحظى المفتاح بأهمية تتناسب مع ما يقود إليه ولو قوَّمنا الكتابة العربية حسب هذا المقياس لوجدنا أنها ليست خير مفتاح فحسب بل خير إقليد لأعظم خزانة.

فقد حملت هذه الكتابة العربية القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وملايين الصفحات المُسطَّرة في ميادين العلم المتنوعة والمتشعبة، مما يزيدها تفوقاً وفضلاً على لغات أخرى قد تضارعها، أو تفوقها في القدم ولكنها لا تمتلك الثقل الحضاري والمعرفي الذي حظيت به الكتابة العربية.

المآخذ المنسوبة إلى الكتابة العربية:

ووجهت الكتابة العربية، في هذا القرن خاصة بانتقادات ومطاعن أشارت إلى مَثَالِب ومَعايِب فيها. وقد كثر الحديث عن تلكم النواقص في الكتابة العربية مما حدا بمجمع فؤاد الأول للغة العربية إلى أن يؤلف سنة 1938م لجنة من العرب والمستشرقين كي يدرس هذه المشكلة ويعمل على حلها وتقديم بديل للكتابة العربية. يخلصها مما علق بها من شوائب ويزيح عنها مَواطِن الخلل فيها،

وبعد ست سنوات من عمل اللجنة أعلنت سنة 1946م عن منح جائزة قدرها ألف جنيه مصري لصاحب أفضل اقتراح في هذا الخصوص.

وكانت حصيلة ذلك أن انهالت المقترحا ت ووصل عددها إلى أكثر من مائتي اقتراح بَحث المجمع اثنين منها أولهما للأستاذ على الجارم وثانيهما لعبد العزيز فهمي ونشرهما في كتاب خاص.

المأخذ الأول:

يكثر تدوين الأحرف وهي خالية من الحركات (الفتحة والضمة والكسرة) وإذا ما استخدمت تلك الحركات فإنما اقتصر ذلك على الكتابات الموجهة إلى الشُدَّاه والمبتدئين وقد قاد هذا الخلل إلى ما يأتي:

(أ) عدم استطاعة قراءة النص العربي قراءة صحيحة إلا إذا كان القارئ مُلِمًّا أصلاً بقواعد اللغة نحواً وصرفاً، وكان له عِلْم مسبق بما يقرأه: وهذا رأي قاسم أمين، خلاف القاعدة، ففي معظم اللغات الأوروبية – كما يرى – يقرأ الناس قراءة صحيحة ما تقع عليه أبصارهم. أما نحن فلا نستطيع أن نقرأ قراءة صحيحة إلا إذا فهمنا أولاً، ما نقرأه.

(ب) إن النص العربي – تبعاً لذلك – عرضة لقراءات مختلفة تتوقف على لهجة القارئ الأصلية – وبما أن هذه اللهجات عامية، بعيدة عن الفصحى، فإن البون بين ما يجب أن يُقرأ وما يُقرأ فعلاً صار شاسعاً.

(ج) إن قراءة الأعلام غير المحركة أمرٌ مشكل، ولذا حاولت بعض المعجمات تدارك هذا بالنص على الحركة كقولهم كنانة بكسر الكاف.

(د) إن هذا الخلل يشيع اللحن، ويعمل على انحلال العربية الفصحى.

المأخذ الثاني:

تعدُّد صور الحرف الواحد، فحرف الباء – مثلاً – يُكتب بأربعة أشكال، ب، ب، بـ، بـ، فيتغير شكله وفقاً للجهة التي يتصل بها (من اليسار أو من اليمين أو من الجهتين أو غير متصل، وكذا في معظم الحروف الأخرى. وقد سبب هذا العيب جملة من المشاكل منها:

(أ) تكليف المطابع نفقات كثيرة بغية الحصول على عدة نماذج لكل حرف من حروف الهجاء.

(ب) ارهاق العمال في صف ثلثمائة صندوق من الحروف عند طبعهم.

(ج) تعرض عمال الطباعة تبعاً لذلك للخطأ في الطبع.

المأخذ الثالث:

قيام التفرقة بين مجموعات الحروف على أساس عدد النقاط ومواضعها. مع تساوي شكل الحروف مثل الجيم والحاء والخاء في الشكل واقتصاد الفرق على التنقيط. وقد نتج عن ذلك ما يأتي:

(أ) اضطرار الكاتب إلى مراجعة ما يكتب ليضع النقاط في أماكنها المناسبة، وفي هذا إسراف في الجهد والوقت.

(ب) تعرُّض الكاتب لإغفال بعض تلك النقاط أو وضعها في غير أماكنها مما يربك القارئ.

(ج) اجهاد القارئ لكثرة الحروف المنقوطة، وتعرضه للارتباك والخطأ في القراءة، وهذا ما دعا بعض الكتب والمعجمات إلى النص على عدد النقاط ومواضعها كقولهم في كلمة حبل: بالحاء المهملة والباء المعجمة الموحدة من تحت إلخ.(14) (أنيس فريحة، 1980م، ص 147-150.).

نتائج الدراسة:

وما توصلت إليه هذه الدراسة من نتائج يتمثل فيما يلي:

1- أنَّ الدعوة إلى تغيير الكتابة العربية مؤامرة على ركن علمي وفكري من أركان الأمَّة وهي الدعوة إلى العامِّيَّة وإلغاء الإعراب، لا تعدوا أن تكون مِعْولاً يحاول أن يصيب مقتلاً في كيان هذه الأمَّة، خاصة أن كثيراً من دعاتها من غير العرب أو غير المسلمين.

2- إن تبديل الكتابة العربية يعني احتياج القارئ للتراث العربي إلى التدرب على قراءة الخط العربي وهذا يعني فصم العلاقة بين العربي وتراثه. وفي حالة إعادتنا لطبع التراث العربي وفقاً للكتابة الجديدة، فإنَّ من شأن هذا أن يكلفنا الكثير من المال والجهد.

3- إنَّ الخط العربي يتسم بجمال وإمكانات فنية كبيرة ولو اطَّرحنا الكتابة العربية فإننا سنفقد هذا الجمال.(15) (عبد الصبور شاهين، 1980م، ص 267-270.).

وقد اختلفت مواقف مؤلفي الكتب المذكورة ما بين مؤيد للتغيير مثل د/ أنيس فريحة – ورافض للتغيير مثل د/ عبد الصبور شاهين.

ملاحظات:

يمكن أن نلاحظ أموراً عدَّة في دعوات الرافضين للكتابة العربية أهمها ما يلي:

1-أنَّهم أوحوا إلى العربي أن العُيوب المنسوبة إلى الكتابة العربية خاصة بها، تنعدم أو تكاد في الكتابات الأخرى. صحيح أن قسماً منهم أشار إلى بعضتلك العُيوب في لغات أخرى كاللغات السامية ولكن إشارتهم تلك كانت عَجِلة عابرة في حين يولغ في إبرازها وتقحيمها في العربية.

2-أنَّهم سعوا إلى أن يُفهِموا العربي أن تلك العُيوب قَاتِلة وأنَّ فيها دماراً للتعليم والاستيعاب وأنَّها جعلت الكتابة العربية واحدة من أسوأ الكتابات في العالم إن لم تكن أسوأها.

3- أغفلوا ميزات الكتابة العربية، فقدَّموا بذلك صورة غير متوازنة ومفتقرة إلى الموضوعية.

4- أشعروا العرب بأنَّ الكتابات الغربية والإنجليزية والفرنسية خاصة، وهي القمة والمثل الأعلى، وهذا ما يُفسِّر دعوتهم أو دعوة قسم منهم إلى الأخذ بالحرف اللاتيني (متذكرين بطبيعة الحال الأثر التركي).

5- أنَّهم نظروا إلى تساوي مجموعات من الحروف في الشكل مثل الباء والتاء والثاء على أنَّه مدعاة للارتباك.

6- كان بعض المنتقد ين من الإنجليز والفرنسيين ومن الطريف أنَّ هؤلاء لم يَدعُوا إلى كتاباتهم هم على ما فيها من نواقص ولكنهم دَعُوا إلى تغيير الكتابة العربية.

أما المدافعون عن الكتابة العربية والمتمسكون بها فقد كانت ردودهم سليمة وجيهة، ففي الجانب الجمالي على سبيل المثال، ليست هناك كتابة ذات طاقات جمالية توازي أو تداني الكتابة العربية. وفي فن الخط العربي مصداق لذلك. ويرى الباحث أنَّ المدافعين عن الكتابة العربية أنَّهم على حق في الدفاع عنها تلك الكتابة التي دُوِّن بها القرآن الكريم والحديث النبوي والتراث العربي.

التوصيات:

1- إعادة تطوير طرق تدريس الإملاء والتركيز على التدريبات المختلفة.

2- الاهتمام بالكتابة العربية لأنّها دُوِّن بها القرآن الكريم والحديث الشريف والتراث العربي.

3- الاهتمام بتدريس أنواع الخط العربي لما فيه من جماليات.

المصادر:

أ- القرآن الكريم.

ب- الحديث الشريف.

المراجع:

1- د/ محمود عباس حمودة، 2000م، "دراسات في علم الكتابة"، دار غريب للطباعة والتوزيع، القاهرة، ص 13-14.

2- د/ على أحمد مدكور، 1433هـ 2003م، "تدريس فنون اللغة العربية"، دار الفكر العربي، القاهرة، ص 3-4.

3- د/ عبد اللطيف عبدالقادر، 1433هـ 2003م، "تعليم اللغة العربية –الأُطُر والإجراءات"، مكتبة الضامري، عمان الأردن، ط 1، ص 189-190.

4- د/ فتحي يونس، 1998م، "تعليم اللغة العربية للمبتدئين"، مطبعة الكتاب الحديث، القاهرة، ص 132-133.

5- د/ رشدي أحمد طعيمة، 2000م، "تعليم الكبار الخط – برامجه وتدريس مهاراته في التعليم العام"، دار الفكر العربي، القاهرة، ص 12-13.

6- ابن منظور أبو الفضل جمال الدين ابن مكرم، 1990م، لسان العرب، ط1، ج1، دار صادر، بيرت، ص 698-699.

7- د/ أنور الرفاعي، 1973م، "الإسلام في حضارته ونُظُمه"، دار الفكر العربي، القاهرة، ص 436-437.

8- محمد طاهر الكردي، 1939م، "تاريخ الخط العربي وآدابه"، مكتبة الهلال، القاهرة، ص 73-74.

9- د/ رضوان القضماني، 1984م، "علم اللسان"، ط 1، دار الكتاب الحديث، بيروت، ص 116-118.

10- د/ أندرية مارتينيه، ترجمة ريمون رزق الله، 1990م، اختراع الكتابة، ط 1، دار الحداثة بيروت، ص 11-12.

11- د/ أحمد هبو، 1984م، "الأبجدية – نشأة الكتابة وأشكالها عند الشعوب"، دار الجواد، اللاذقية، سوريا، ص 59-60.

12- د/ فوزي سالم عفيفي، 1980م، "نشأة وتطور الكتابة الخطية العربية"، ط 1، وكالة المطبوعات، الكويت، ص 226-230.

13- د/ فاروق جودي، وسعيد حرب، 1976م، "قواعد اللغة العربية"، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ص 7-11.

14- د/ أنيس فريحة، 1980م، "في اللغة العربية وبعض مشكلاتها"، دار النهار للنشر، بيروت، ص 147-150.

15- د/ عبد الصبور شاهين، 1980م، "في علم اللغة العام"، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص 267-270.